الأسس الربانية في تبليغ الرسالات السماوية:

لغات التبليغ نموذجا

الباحث علي بر
طالب باحث بسلك الدكتوراه
المغرب

بعثالله سبحانه وتعالى رسلا من أصفياء خلقه قصد تنفيذ عمل عظيم يتجلى في تبليغ الرسالات السماوية والتعاليم الربانية إلى البشرية، بغرض انتهاج طريق الفلاح والاستقامة والامتثال لأوامره ونواهيه وإرشاد البشرية إلى الصراط المستقيم ومراتب الإيمان.

وكانت إرادةالله أن جعل لتبليغ الرسالات السماوية أسسا ومناهج تساهم في تحقيق وتوضيح مقاصد الرسالات وانتشارها بما يحفظها ويضمن استمرارها، بعيدا عن الزيغ والضلال والتحريف الذي طال بعضا منها من طرف الأعداء والمغرضين المتربصين، غير أن الرسالة المحمدية –الإسلام– قدّرالله أن تكون محفوظة بأمره وقدرته حيث قال تعالى في محكم تنزيله: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ, لَحَٰفِظُونَ] [1]، وكان من بين الأسس والمناهج المعتمدة في تبليغ الرسالات: عظمة أخلاق الرسل والنبيئين، الإعجاز اللفظي والمعنوي، المحامل والمقاصد الرسالية بحسب كل أمة، لغات التبليغ، التكامل والشمولية...، كل هذه الأسس وغيرها مكونات تساهم في تحقيق التبليغ السديد الذي به تتحقق مقاصد الرسالات السماوية وأهدافها، وفي إطار موضوع البحث سنتطرق إلى أساس من أسس تبليغ الرسالات السماوية وهو: لغات التبليغ، التي تعتبر وسيلة من وسائل التواصل لتبليغ الرسالة النبوية وتوجيه الناس المكلفين والمعنيين بالدعوة.

لذا فإن للغة والدين علاقة وترابط متين ويتصل بعضها ببعض أشد اتصال، حيث يهتم القرآن الكريم –وهو آخر الرسالات السماوية– بدور اللغة والدين في تكوين مجتمع الحضارة كما يتصوره الإسلام، ويظهر اهتمامه في حديثه عن ضرورة تناسب وملاءمة الخطاب الإلهي مع لسان الفهم لدى المكلفين قصد فهم ما أنزل إليهم، وتمثل ذلك غير ما مرة في مجموعة من الآيات القرآنية التي تشير إلى دور وأهمية لغة القوم في التبيين والتعليم، وسأتناول هذا الموضوع من خلال آيتين كريمتين أبيّن فيهما المنهج الرباني المعتمد في تبليغ الرسالات السماوية ومدى تأثير ذلك في تبليغ الرسالة كمقترح نقتدي به في أمورنا التعليمية والتربوية.

بالنظر والتأمل في الآيات القرآنية نستنتج أن اللغة في ذاتها شخصية استقلالية، وأن كل نبي يخاطب قومه وفق طبيعة عصرهم وثقافتهم ولغتهم، فلا يتحقق البيان إلا إذا انطلق من النسق اللغوي والثقافي لأي قوم، فمدار البيان والتبيّن قائم على الإفهام والتفهّم، وكلما كان اللسان أبيَن كان أحمدَ وكان الفهم أوضح، فالله سبحانه قد راعى القدرات الثقافية واللغوية للمكلفين حتى تتناسب مواضيع الرسالات السماوية مع قدراتهم العقلية وحتى لا تفتنهم في دينهم ودنياهم، وهذا سنةالله في الرسالة وكذلك ينبغي أن تكون سنة المخاطبين بأن تبلغ وتعلم وتنشر العلوم بلسان من تخاطِبهم، لا بلهجتك المتفردة الخاصة ولا بلغات غيرك، بل تنطق وتبلغ لهم المعرفة والعلوم بالشكل واللغة التي بها يفهمون، ولا يسمى الخطاب بياناً حتى تبين معانيه لمتلقيه وإلا كان خطاباً، ولذلك نقرأ قولالله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[2]، وهذه الآية دليل على اعتبار المنهج الرباني للأصول الثقافية والعوائد البشرية وعدم إهمالها، وخاصة التي تعتبر من أسباب الوحدة والاستقرار كاللغة والأعراف الحسنة والأخلاق الكريمة والقيم الإنسانية المشتركة.

وجاء في تفسير العلماء للآية الكريمة السالفة الذكر، أن " أبو جعفر قال: يقول تعالى ذكره : وما أرسلنا إلى أمة من الأمم ، يا محمد ، من قبلك ومن قبل قومك، رسولا إلا بلسان الأمة التي أرسلناه إليها ولغتهم (ليبين لهم) يقول : ليفهمهم ما أرسلهالله به إليهم من أمره ونهيه، ليثبت حجةالله عليهم ، ثم التوفيق والخذلان بيدالله ... وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر

من قال ذلك: حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، أي بلغة قومه ما كانت."[3]

" وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولا ﴿إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ/ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به ونهوا عنه، وقامت عليهم حجةالله."[4]

" قال الإمام الرازي ما ملخصه: ... وأما بالنسبة لعامة الخلق، فلأنه- سبحانه - ما بعث رسولا إلى قوم إلا بلسانهم.

والباء في قوله «بلسان» للملابسة، والمراد باللسان: اللغة التي يتخاطب بها الرسول مع قومه والمعنى: وما أرسلنا من قبلك- أيها الرسول الكريم- رسولا من الرسل إلى قوم من الأقوام، إلا وكانت لغته كلغتهم، لكي يتيسر لهم أن يفهموا عند ما يريد أن يبلغهم إياه من الأوامر والنواهي، قال ابن كثير: «هذا من لطفه-تبارك وتعالى- بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عمر بن أبي ذر قال: قال مجاهد: عن أبي ذر قال: قال رسولالله صلىالله عليه وسلم: «لم يبعثالله- عز وجل - نبيا إلا بلغة قومه»."[5]

وهنا قد يرد علينا إشكال وهو قول بعضهم أنالله تعالى اختص العرب فقط برسالة خالدة دون غيرهم من الأمم بلغة عربية مع أنالله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [6]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ][7]، فكيف يتدبر الصيني أو الهندي أو غيرهم من الأعاجم آياتالله إذا كان أغلب العرب لا يفقهون القرآن وفي نفس الوقت هو رسالة للعالمين، قال الإمام الشوكاني ما ملخصه: " إلى الناس جميعا ولغاتهم متباينة.

وأجيب بأنه صلىالله عليه وسلم وإن كان مرسلا إلى الثقلين، لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به وأقرب إليه، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم وبيّنه الرسول لكل قوم بلسانهم، لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحا لباب التنازع، لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها مالا يعرفه غيرها.

وربما كان ذلك- أيضا- مفضيا إلى التحريف والتصحيف، بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون."[8]

ويعتبر باب الترجمة سبيل معين لتبليغ الرسالة المحمدية كما أشار إلى ذلك الإمام البغوي في تفسيره للآية: "﴿ وَمَآ أَرْسَلْنا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ/ لِ يُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾، بلغتهم ليفهموا عنه ما يلقيه إليهم، فإن قيل: كيف هذا وقد بُعِث النبي صلىالله عليه وسلم إلى كافة الخلق؟ قيل: بُعث من العرب بلسانهم والناس تَبع لهم ثم بث الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلىالله عز وجل ويُترجمون لهم بألسنتهم."[9]

لذا من الضروري أن يكون التبليغ والدعوة والتعليم بلغة تحقق فرز المعاني وتبيّنها بما تقوم به الطبائع والنفوس، فحين شاء العليم القدير سبحانه أن ينزل خاتمة الرسالات الرسالة المحمدية، اختار اللغة العربية لغة العرب من بين لغات أهل الأرض، لفضائل فيها ومزايا وخصائص علِمَ هو سبحانه أنها هي وحدها القادرة على استيعاب المعاني التي تحقق التلقي والتسليم للرسالة الخاتمة، قال الإمام الشاطبي: " ولما بعث الرسول للناس كافة، فإنالله جعل كافة الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعا للسان العرب."[10]

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[11] "وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبْيَنُها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تَقُوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل..."[12]، والمتمعن المتأمل في المسار الذي اختطته رسالة الإسلام لنفسها عبر الفتح الإسلامي في بقاع الأرض، لم تسجل هذه الرسالة صراعات أو مشكلات بين لغة الفاتحين ولغة الأمم التي اعتنقت الديانة الإسلامية، وهذا من أكبر الأدلة الجازمة بعالمية الرسالة الإسلامية ومن أيقن المؤشرات على توافق الديانة الإسلامية مع العوائد الإنسانية وترشيدها وتوجيهها، وكل هذا ناتج عن توافق في لغة الدعوة والتبليغ مع لغة الأمم الأعجمية باعتماد الترجمة والتعريب اللذان يقومان بدور البيان كما هو مشهود في ترجمة القرآن بكثير من اللغات، وكما هو ملحوظ في المنظمات العالمية في عصرنا الحالي التي تعتمد ما ترسمه بطريق الترجمة من اطلاع على الأبحاث العلمية والتقنية للعلماء العرب السابقين، وما كوّنه التعريب من وعي عربي في الحضارة الإسلامية بما نقله المسلمون من علوم وثقافات الفرس والهند والصين ومصر واليونان والرومان إلى لغة القرآن وجدوا فيه خير معين، وهذا بفضل العربية على العلم والمدنية.

ولو لم تكن لغة القرآن التي هي لغة الحضارة الإسلامية لغة مدنية وعمران متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، ولو تكن الترجمة طريقا للبيان وثورة للانفتاح الحضاري، لما استطاع الأسلاف أن ينقلوا إلى اللغة العربية علوم اليونان والرومان والهند...، ولما استطاعوا أن يفتحوا الأمم الأعجمية وأن يضمنوا استقرارها الاجتماعي والثقافي، إن اللسان القومي ضمانة للعقيدة ونهضة للثقافة وقاعدة للتفاهم.

والناظر في السياق التاريخي وفي الواقع المعاصر يستنتج أن مظاهر ازدهار قوة لسان أمة على لسان أمة أخرى وبناء حضارتها تتمثل في بعض النقاط الأساسية، أولها: قوة هذا الإنسان في مختلف المجالات الثقافية والعلمية والاقتصادية، فإذا أحكمت هذه القوة واتسع نطاقها تَهَيّأ أسباب بيان اللسان، لذلك تجد الرسول صلى‌الله عليه وسلم لا يرسل رسولا لتبليغ الديانة الإسلامية بين باقي الأمم والأمصار إلا وهو متسلح بلغتهم، وكذلك الحال في واقعنا المعاصر تجد بعض الدول التي لها نصيب ظاهر من الحياة الدنيا تسارع إلى بث لغتها و تركيز ثقافتها في الشعوب المتخلفة والمستهلِكة والمتثاقلة بمختلف الوسائل الفعالة، وتسيطر على مجموعة كبيرة في العالم بقوة لسانها وأسلوبها.

ثانيا: قوة التعليم، المتمركز في وظيفة المربي أو المعلم ومدى قدرته على الكشف والبيان عن منهج الحياة، ولا يكون ذلك إلا بلسان القوم، ولو كان التعليم بلسان مخالف لوقع تغيير في حقيقة وطبيعة القوم ويعد ذلك تعبير عن فقدان الثقة بأهم مقومات المجتمع وحرمان من الاستفادة من المثقف وكبت لعطاء المتعلمين والمعلمين، لذلك يعد المنهج الرباني في الدعوة والتبليغ الحل الوسط لتحقيق التواصل والنمو الحضاري والثقافي والفكري والعلمي.

ثالثا: استخدامها للغات الرسمية في مختلف مرافق الحياة ومراكز التربية ومصالح الإدارة من دون مضايقة، وهو ما جعلها تنافس اللغات الحية المنتجة العالمية وتضع بصمتها بينهم في مختلف الميادين، كاللغة الإنجليزية مع باقي اللغات الأجنبية كالفرنسية والصينية وغيرها.

رابعا: تعزيز التفاهم والتواصل المعرفي والثقافي داخل الأمة الواحدة، إذ هي نواة بناء الحضارة ولا يتأتى ذلك إلا بلسانها الذي يعد الوسيلة الطبيعية لجمع كلمتهم وتقوية وحدتهم، لأن وحدة الثقافة توجب وحدة التفكير الذي به يسهل تخطيط برامجها ومناهجها من أجل حضارة قوية تؤهلها لمواجهة غمار منافسة باقي الحضارات العالمية.

ومن خلال تدبر وتأمل هذه الآية الكريمة واستثمار المنهج الرباني المعتمد في تبليغ الرسالة المحمدية بالاقتداء به في مسار التعليم والتربية نكون قد تجاوزنا عقبة من عقبات مشاكل التعليم التي يتخبط فيها منذ سنوات وبالأخص لغة التعليم، فهذا رسول صلى الله عليه وسلم مرسل ومسلح بالمعجزات ومعه جبريل والملائكة، ومع كل هذه القدرات أُرسل بلسان قومه لتصل الرسالة ولتفهم بشكل جيد، لكن يأتي من يقول لك رسالة التعليم ينبغي أن تكون بلغات أجنبية من أجل مواكبة الركب الحضاري.

وإذا قمنا بتنزيل المنهج الرباني للغة التبليغ على المنظومة التعليمية المغربية الذي يشير إلى اعتبار لسان القوم الوسيلة المثلى في تبليغ المعرفة والعلوم، فإنه قد ترد علينا انتقادات وشبهات من دعاة التعليم باللهجات العامية كالدارجة أو ببعض اللغات المحلية كالأمازيغية التي تتغير ألفاظها بين أمازيغية سوسية (تشلحيت) وأمازيغية ريفية (تريفيت) وحسانية وغيرها، والتي تعد في نظرهم وسيلة أقرب إلى تحقيق تواصل معرفي وعلمي بين المعلمين والمتعلمين، فنقول:

أولا: إن التعليم بالدارجة وسيلة غير بيداغوجية لأنها تعد عقبة خطيرة أمام تدريس جميع اللغات، وليس اللغات الرسمية العربية والأمازيغية، كما أنها خطوة تروم الهبوط بالمدرسة من موقع الريادة والنخبة ذات قدسية إلى مستوى الشارع العامي، ومن تم سيتساوى الفضاء المدرسي بقارعة الطريق وملاعب الحي والملاهي...، وهي أيضا خطوة بيداغوجية غير تربوية حتى لو سلمنا بالتدريس بها، فبأي دارجة سيتم تعليم المتعلمين؟، وكما لا يخفى عليكم أن الدارجة المغربية تتغير من إقليم إلى آخر، وأنها تتضمن مجموعة من العبارات مختلطة ممتدة من لغات أجنبية كالفرنسية والإنجليزية والإسبانية، وهذا الأمر مدعاة إلى التقوقع الحضاري الذي يجعل المتعلم المغربي محدودا منعزلا عن الركب الحضاري ما يعني تخلف المجتمع المغربي ككل في مختلف المجالات.

ثانيا: لا يمكن اعتماد الدارجة أو الأمازيغية في المقرر الدراسي بالتدريس بها في المواد العلمية والتقنية وغيرها، لأنه لا يمكن استحضار حق كل اللهجات المحلية في الاستعمال، وإلا سيتم فرض عبارات إقليمية معينة مكان عبارات محلية أخرى ذات أسبقية، وهذه الخطوة طريق لتعزيز الميز العنصري بين الأقاليم وأيضا اتساع هوة التفرقة بين الأقاليم المغربية، فكل إقليم سينادي ويطالب بالتدريس بلغته ولهجته المحلية، ومن ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[13]،" يخبر تعالى عن فضله وكرمه حيث أنزل كتابا عربيًا على الرسول العربي بلسان قومه ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآنا أعجميًا بلغة غير العرب، لاعترض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي: هلا بينت آياته ووضحت وفسرت ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أي: كيف يكون محمد عربيًا، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون، فنفى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموفقون انتفعوا به، وارتفعوا وغيرهم بالعكس من أحوالهم."[14]

لذلك ندعو إلى إعادة النظر في السياسة اللغوية التعليمية والدفع باللغة العربية نحو تعميمها في جميع المراكز والإدارات العامة والخاصة، وهذا من كرم الله علينا أن جعل الأمة المغربية أمة إسلامية تنتمي إلى حضارة عريقة ساهمت في بناء الإنسان في مختلف المجالات، وكما لا يخفى عليكم أن اللغة والدين الإسلامي الحنيف يحتلان موقعا هاما في الجغرافية الحضارية للأمة، فهما حِصنان متينان تحفظ الأمة من براثين وزلازل الشبهات والاختراق الحضاري، وتجعل الانفتاح على لغات الأمم الأخرى أديانهم انفتاحا واعيا منيعا، منضبطا بأبيات التواصل الحضاري وقوانين المشترك الإنساني، لذلك فالأمة الضعيفة المتفرقة داخليا سهلة المضغ والبلع من قبل قوى الأطماع العنصرية الحاقدة على مجد وحضارة الأمة الإسلامية، " ولما كانت المطالب القومية في أوروبا وحدة اللغة، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات "[15]، هكذا ينظر إلينا أعداء الوحدة الإسلامية، لأن الدين واللغة من أسس الثقافة

وهما النواة الحيوية لنسيج المجتمع، الدين مثل اللغة رمزان أساسيان لهوية المجتمع والحضارة وهما عنصرين رئيسيين للنظام الثقافي لمعظم الناس في العالم، لذلك نجد أن الانتماء الديني أخذ في الانخفاض في بعض أجزاء المناطق الأساسية في العالم ما عدا بعض مظاهر التدين المتمثلة في الحياة اليومية كالأكل والشرب وقواعد اللباس والعادات الشخصية، نجد نفس الأمر عند اللغة فمع تغير مظاهر التدين تتغير عوالم اللغة من دخول مصطلحات غربية عن اللغة الأم والاعتزاز بلغات الآخرين نظرا لتميع الدين وقلته في أوساط المجتمع، بل أصبح التحدث باللغات الأجنبية في المجتمع العربي دليل على التحضر والانتماء الطبقي المعرفي والاقتصادي وهو ما يؤثر على الهوية الدينية والثقافية والاجتماعية لأفراد المجتمع، لذلك لا يمكن فصل الدين عن اللغة داخل المجتمع الواحد بأي حال من الأحوال، وما نشاهده من قلق واضطراب في أوساط المجتمع المغربي لموقف السياسة اللغوية المخجل من اللغة العربية والقرارات والقوانين التي تعرقل التدريس بها، طريق إلى انتشار التميع الأخلاقي والتخلف الحضاري والثقافي والعلمي وانحلال الهوية الإسلامية المغربية.

الهوامش:

[1] – سورة الحجر، الآية: 9.

[2] – سورة إبراهيم، الآية: 4.

[3] – الطبري محمد بن جرير بن يزيد، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد عبد الرازق البكري، محمد عادل محمد، محمد عبد اللطيف خلف ... [وآخرون]، (ص: 4773/مج6، بتصرف.

[4] – السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 375-376.

[5] – طنطاوي محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، (مج 7/ص: 14-15، سورة إبراهيم، بتصرف.

[6] – سورة الأنبياء، الآية: 106.

[7] – سورة يوسف، الآية: 2.

[8] – الشوكاني محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، حققه وخرج أحاديثه عبد الرحمن عميرة، ص: 129/مج: 3.

[9] – البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، (ص: 367/مج:3).

[10] – الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد، الاعتصام، ص: 465.

[11] – سورة يوسف، الآية: 2.

[12] – ابن كثير إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، (ص: 365-366/مج: 3، جزء: 4).

[13] – سورة فصلت، الآية: 43.

[14] – السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 697-696.

[15] – سارتر، جان بول، عارنا في الجزائر، ترجمة عايدة وسهيل إدريس، ص: 23.